معبد دمشق *

لايعرف في العالم معبد طال عمره ودام نفعه للناس وتوارثته أديان مختلفة وأقيمت فيه شعائر دينية متباينة ، مثل ما اشتهر به معبد دمشق الأعظم وكنيستها بالأمس ومسجدها اليوم . وهو من أكبر مفاخر العاصمة الاموية وزينة دمشق إلى أبد الدهر . قد توالت فيه العبادات الوثنية والسماوية بتصاريف اللغات ، واختلاف الالسن ، منذ أذن الله أن يرفع ويذكر فيه اسمه حتى يومنا هذا . وما زال يشع منه بأساليب متنوعة ، نور الفضيلة والدعوة اليها . إن كان اليوم يوعظ فيه من أعلى منابره ، فقد كانوا بالأمس يبشرون في هيكله للغاية المثلى والارشاد لما فيه خير العباد وسعادتهم الأبدية .

فما برح هذا المعبد ، منذ فجر التاريخ أي من نحو (٣٠٠٠) سنة متوالية ، يؤدي رسالته على أتم وجه ، يؤمه المؤمنون ملبين دعوة مناديهم ، ويفزعون إلى أربابهم يستنصرونها ويستسقونها حسب وحي عقائدهم ومزاعمهم ، ويؤدون فيه فرائضهم الدينية بنفوس خاشعة مطمئنة ابتغاء رضوان معبودهم والتكفير عن زلاتهم .

فمها بلغ اليوم اعجابنا بفخامة بناء الجامع الأموي وعظمة مظاهره ، فلن يبلغ الشعور الذي يبعثه في قرار نفوسنا ذكريات ماضيه المجيد الذي يزكي خيالنا ويثير الدهشة والروعة فينا ، كلما استعرضنا حوادثه مدى تلك الحقب الطوال ، وهو يتمتع أبداً بحرمة خاصة ، كفته عوادي الزمان

(١) محاضرة القاها الأمير جعفر الحسني في ردعة محاضرات المجمع العلمي العربي في ٤ شباط سنة ١٩٤٤ .

واحداث العصور ، وسيبقى ذكره ويحيى اسمه مادام الانسان يدين بعرفان الجميل ، ويكرم نفسه باحترام ماضيه .

إن جاز لنا أن نعتبر المعابد والكنائس والجوامع أولى المعاهد الثقافية التي ابتدعها الانسان . وانبثق منها نور ثمرات تفكيره وتهذيبه ، فيصح لنا أن نعتبر جامع دمشق الأموي — وارث هذا الماضي الجليل — من أقدم هذه المعاهد العامرة ، وأطول عمراً من جميع ما احتفظ به من نوعه ، دون أن يتحول عن الغاية التي انشيء من أجلها . فهو يضم بين جدرانه أسمى ذكريات جهود الحركة العقلية خلال ثلاثة آلاف سنة متوالية انبعث منها ما انتهى الينا من تطور الفكر البشري الذي ينعم العالم المتمدن بثمراته ، وما زال يقتفي خطواته .

ولذلك قد انتقيت دراسة تاريخ هذا المعبد وتطوراته موضوعاً لهذه المحاضرة لعلي أوفق في بحثي بقدر ماتجود به علينا الوثائق التاريخية وماتوحيه الينا الاكتشافات الأثرية الحديثة .

إن كان يتعذر علينا معرفة أول من أنشأ مدينة دمشق فانه يصعب علينا تحديد عهد بناء معبدها أو ادراك رسمه الأول . ان موقعه في قلب المدينة القديمة ، ونمو البناء من حوله ، وتوجيه الشوارع والمنافذ نحوه ، يحملنا كل ذلك أن نجزم — دون أن نرمي بالرجم بالغيب — أنه يحاكي مدينة دمشق بالقدم وبعد العهد ، فهو من دمشق كالنواة من الثمرة لايعرف أيهما علة وجود الآخر ، ولا أيهما الأسبق بالقدم . فها والحالة هذه صنوان وما يصح قوله بأحدهما ينطبق حتماً على الآخر .

قد اتفقت الروايات على قدم مدينة دمشق ، وأجمع المؤرخون على ذلك وإن غاب عنهم مع تطاول العمر ذكر أول من بناها ، وان تضاربت بذلك الروايات . فمنهم من زعم أن آدم عليه السلام كان ينزل بجوارها ، وان على جبلها قاسيون قتل قابيل أخاه هابيل ، وروى غيرهم أن أول حائط وضع في الأرض بعد الطوفان حائط دمشق وحران ، وان فيها دار شداد

ابن عاد ، وانها هي الربوة ذات قرار ومعين ، وارم ذات العماد . وجاء في التوراة أنه زارها النبي ابراهيم الخليل ، وافتتحها النبي داود عليها السلام وجاء ذكرها في أقدم الوثائق الآثرية البابلية منها والمصرية . يحملنا كل ذلك أن نسلم مع القائلين بتقادم عهد هذه المدينة مها بالغوا وقالوا شططا ولا نستغرب ذلك ولا نرتاب بصحته رغم فقدان الأدلة العلمية المادية المؤيدة لما ذهبوا اليه . واذا قارنا موقع دمشق وما جاورها بغيرها من منازل الانسان قبل التاريخ في مختلف البلاد الشامية وغيرها ، نجدها من أفضل المنازل التي يمكن أن يختارها الانسان الاول لسكناه . فقد وهبتها الطبيعة أحسن الصفات التي تطلبها يسر العيش وسهولة نواله . فيها الكهوف يأوي اليها ، وفيها الأنهار يرتشف ماءها ويتصيد أسماكها . وفي ربوعها الحقول الخصبة ينتجع خيراتها ، ويطارد الوحوش في سهولها الواسعة طلباً للحومها ، وتمتاز أيضاً هذه البقعة باعتدال اقليمها وطيب هوائها . وحيثما توفرت هذه الاسباب تحققنا معها وجود الانسان . وهذه العناصر هي من العوامل الرئيسية في تطور حياة الانسان في مختلف الأزمان والأمصار . وسنجد مصداق قولنا وشواهده حينما يصار الى التنقيب العملي والبحث العلمي بجمع الادلة المادية عن نشاط انسان ماقبل التاريخ في منطقة دمشق خلال عشرات ألوف السنين . وقد عثر على كثير من منازل ذاك الانسان في بلاد الشام أي سورية ولبنان وفلسطين والشرق العربي . وقد عثر في النابغة شمالي فلسطين على جمجمة انسان قدّر الخبراء عمرها بثلاثةمئة ألف سنة وهو على ما أعلم أقدم ماعرف عن أثر وجود الانسان في هذا العالم . كما أننا عثرنا في المرج الأخضر أثناء حفر أساس بناء متحف دمشق على عظام بشرية قدر لها العارفون من (١٠٠٠٠) الى (١٥٠٠٠) سنة .

إن كان يصعب علينا ايجاد تاريخ شامل لمعبد دمشق ، فكذلك يتعذر علينا اليوم معرفة اسم أول معبود كرم في هذا المعبد في ماضيه المجهول . وأقدم من اتصل بنا خبره من الأرباب التي كانت تعبد فيه ويدين له

سكان دمشق في جاهليتهم هو الذي عرف في العهد الروماني باسم (جوبتر) الدمشقي أو المشتري الدمشقي واليه نسب الرومان هذا المعبد . ونعلم من بعض الوثائق أنه كان يعبد في دمشق منذ المئة العاشرة قبل المسيح الصنم (رمّون) أو (هَدَد) وقد اهتدينا إلى ذلك من تراكيب أسماء من اتصل بنا خبرهم من ملوك إرام وكانت دمشق قاعدة ملكهم ، منهم (طبرمون) أي رمون الحنون ، وابنه (بن هدد) أي ابن هدد ، و (هدد عنزر) أي عون هدد ، وهذا الاخير هو ملك صوبة ومعاصر للنبي داود عليه السلام . وهذا المعبود هو (كجوبتر) أو المشتري عند الرومان ، رب الأرباب ومثير العواصف ومنزل الغيث ومنبت الزرع وعلة خيرات هذا الوجود . وكانت أيضاً تعبد فيه رفيقته (عترعتيس) أو الزُهرة . وقد تعرف الرومان الى (هدد) ورفيقته منذ القرن الثاني قبل الميلاد ، حملها إلى روما وممتلكاتها الارقاء والاسرى الشاميون ، وبقي هؤلاء الموالي امناء لارباب بلادهم لايرضون عنها بديلاً ، يؤدون لها شعائرهم الدينية بحرية تامة دون أن تستهويهم ديانة ساداتهم الرومان ، وقد تأثر الرومان مع الزمن بما يشاهدونه من هؤلاء الارقاء ومن المهاجرين والتجار الوافدين من بلاد الشام فاقتبسوا الكثير من طقوسهم الدينية . وقد شيد في القرن الثاني للميلاد بعض أثرياء الرومان في مرفاء (بوزولس) (Pouzzoles) في ايطاليا معبداً لبعل دمشق وهو هدد سيد دمشق ، وكرموا غيره من الأرباب العربية مثل (ذوي الشرى) و (اللات) وقدموا لها العتائر أي القرابين ورفعوا لها الأنصاب . وقد سرى ذلك الى بعض قياصرة روما ، وشغف نرون الطاغية بالربة (عترعتيس) وهو حادث مشهور ، حتى فضلها على كثير من أرباب ملته . وقد اعجب الرومان بديانات المشرق وتأثروا بتعاليمها وأخذوا بمبادئها وبرزت واضحة في أكثر طقوسهم الدينية وتغلب عليها الطابع الشرقي . وما تقبل الرومان الديانة المسيحية إلا اثر من هذا الاعجاب ومرحلة من تفوق المشرق على المغرب وفرضه نظامه الاجتماعي على القارة الغربية ، وهنا نرى السيد يتأثر

بعولاء وهذا من شذوذ سنن العلائق بين الحاكم والمحكوم والغالب والمغلوب .

وقد انصلت بعض أخبار معبد دمشق بقدماء مؤرخي الاسلام . فقد ذكر المسعودي أنه : « كان مسجد دمشق قبل ظهور النصرانية هيكلاً عظيماً ، فيه التماثيل والاصنام ، رأس مناره تماثيل منصوبة . وقد كان بني على المشتري وعلى طالع سعد . » وروى لنا شمس الدين محمد بن أبي طالب الدمشقي المعروف بشيخ الربوة : « ان جامع دمشق كان أول ابتدائه هيكلاً للمشتري من أبناء جيرون بن سعد بن عاد ، ولم يزل كذلك حتى جاء الله بموسى بن عمران ، فصار بيعة لليهود إلى أن ظهر دين النصرانية فاتخذوه كنيسة حتى جاء الله بالاسلام فاتخذ مسجداً ، فله أربعة آلاف سنة وهو معبد » . وذكر لنا أيضاً الاصطخري شيئاً بهذا المعنى .

وروى لنا الكتاب المقدس قصة نعمان رئيس جيش ملك إرام – أي دولة دمشق – حينما سافر الى السامرة للاستشفاء من البرص ، وحمل معه عند عودته الى دمشق التراب من الأرض المقدسة وبنى بها مذبحاً لاله اسرائيل في هيكل (رمون) بدمشق وسجد له ، وذلك في المئة العاشرة قبل الميلاد ، وهي على مانعلم الفترة القصيرة الوحيدة التي تسربت بها الديانة اليهودية الى معبد دمشق . وذكر لنا أيضاً خبر (احاز) ملك أورشليم لما جاء دمشق في القرن الثامن قبل الميلاد للقاء (تغلتفلاسر) ملك اشور فاعجب بمذبح المعبد أشد الاعجاب وأمر أن يبنى في هيكل أورشليم مذبحاً على غراره . ويدلنا هذا على ما كان عليه وقتئذ معبد دمشق من الابهة والعظمة حتى استحب (احاز) مذبحه وعمل مثله لهيكل اورشليم وهو هيكل سليمان العظيم . ومازال معبد دمشق يتدرج في التوسع والعمران في عهد الفرس والسلوقيين والرومان الى أن بلغ أرفع ذروته في القرن الثاني الميلاد ثم أفل نجمه بعض الشيء حينما حول النصارى بعضه الى كنيسة ثم عاد وازدهر في العهد الاسلامي الى أن بقي على الحالة التي نعهدها به اليوم .

وتدلنا بعض الوثائق الاثرية القديمة على ما كانت عليه هيئة هذين المعبودين

(أي هدد وعترغتيس) في العهد السلوقي في القرن الأول قبل الميلاد . فقد نقش تمثال هدد على أحد دراهم انطيوخس الثاني عشر بصورة انسان كث اللحية واقف على عرش بين ثورين ويرتدي ثوباً طويلاً مشدوداً على وسطه بحزام ، ولبس على رأسه طرطوراً بشكل قلنسوة دقيقة القمة ، ويحمل بيساره سنبلة اشارة لما يجود به على البشر من خيراته ويكتفي في بعض الحالات بصورة الثور أو بعضه رمزاً لهدد . ولعل فكرة عجل الذهب الذي اصطنعه بنو اسرائيل لعبادتهم لما استبطأوا رجوع نبي الله موسى اليهم مستمدة من هذه العقيدة . وكان الثور حيواناً جليل القدر عند الاقدمين ويزعمون أن الآلهة كانت تتقمص بصورته كلما أرادت أن تظهر على الأرض وهي عقيدة سائدة في مصر وبلاد الشام . ويرمز أيضاً الى هدد بقبضة انسان تضم الصاعقة والسنبلة رمز الغيث والنبات . ونقش تمثال رفيقته (عترغتيس) على درهم دمتريوس الثالث السلوقي بشكل امرأة واقفة مرتدية ثوباً ضيقاً واسبل على رأسها خمار يصل الى قدميها . وصورها الرومان بشكل سيدة على رأسها طرطوراً فوقه هلال ، وهي جالسة على مقعد بين أسدين . ويرمز اليها أيضاً بكف انسان مبسوطة اشارة للعناية الربانية التي تشمل بها عبّادها . ويرجح أنها كانت تمثل في الأعصر القديمة بشكل نصب لا نقش عليه .

وقد عرفت دمشق بانها مدينة هدد أو المشتري كما ذكره ابن عساكر في تاريخه بقوله : « بلغني عن بعضهم أن دمشق بنيت على الكواكب السبعة وان المشتري بيته دمشق . » والكواكب السبعة التي عناها هي : زحل ، والشمس ، والزهرة ، والمشتري ، والمريخ ، وعطارد ، والقمر ، وكلها أسماء آلهة وثنية معروفة عند الرومان وغيرهم ، فالاول منها إله الزمن ، والثاني إله الحرب والثالثة إلهة الجمال ، والرابع رب الأرباب ، والخامس إله الحرب ، والسادس إله البلاغة والتجارة واللصوصية ، والسابع إله الزرع ، والمرجح أنه كان في دمشق لكل من هؤلاء الأرباب معابد وهياكل مستقلة

تكرم فيها ولكنها درست جيمها وضاعت معالمها ، ولم يتصل بنا خبرها .
وقد عثر في حفريات جرت سنة ١٩٢١ في جهة الباب الشرقي من المدينة . بجوار بيت حنانيا على بقايا معبد وثني ، بنيت على أنقاضه كنيسة المصلبة ، احدى الكنائس الخمس عشرة التي صالح عليها المسلمون النصارى يوم فتح دمشق ، وهدم صلاح الدين الايوبي هذه الكنيسة وبناها مسجداً .

إن الهيكل الوحيد التي كتب لاثره البقاء هو معبد المشتري أو (هدد) رب الأرباب وكان أعظم المعابد وأقدسها ، وأجلها بناء ، وأسماها منزلة ، يحجون اليه من أقصى بلاد الشام للتبرك به ، وقد عرفت دمشق في العهد الروماني بانها بيت المشتري . كما عرفت بعلبك بانها بيت (بعل) أو الشمس وكما عرفت منبج أنها بيت (هيرا) أو (عترغتيس) رفيقة هدد .

وقد اتصل بنا بعض أخبار هذا المعبد من مصادر عديدة وشواهد كثيرة ، أصدقها مانشاهده اليوم بأم أعيننا ، حينما ندخل الجامع الأموي أو نطوف حوله . يقع هذا المعبد في قلب النصف الغربي من مدينة دمشق القديمة على مرتفع أو رابية كانت تشرف على المدينة وتعلو عن سطح أرض المدينة القديمة نحو ستة الى عشرة أمتار . وقد زال اليوم هذا الفارق بارتفاع مستوى ما حول هذه الرابية ، وكان لزاماً على الداخل أن يصعد السلالم من جهاته الاربع . كما هو الحال اليوم في مدخل باب جيرون أو النوفرة عند المدخل الشرقي ، ويحيط بهذا المعبد سوران مستقلان ، يحيط أحدهما بالآخر ، فالاول هو السور الخارجي الكبير طوله (٣٨٠) متراً وعرضه (٣١٠) أمتار ، ويرتكز عليه من الداخل رواق مسقوف يظلل الحوانيت التي كانت تحته ، ويقي أبناء السبيل حرارة الصيف وأمطار الشتاء . وكان للسور مدخلان فخمان ، أحدهما من الشرق عند مصلبة القيمرية ، في المحلة المعروفة بالمنطة والثاني من الغرب عند مدخل المسكية ومازلنا حتى اليوم نشاهد بقايا هذين المدخلين العظيمين ، ونعجب بعمارتهما . وكان للمعبد أيضاً مدخل بسيط من الشمال ونظيره من الجنوب ، وأما مدخله

الرئيسي فهو المدخل الشرقي . وكان هذا السور يحيط بحمى المعبد الخارجي . حيث كانت ممتلكات المعبد وأوقافه ، ويتمتع هذا الحمى بحرمة مقدسة ، لايجرؤ على انتهاكها سلطان . فمن دخله كان آمناً على نفسه وأمواله . ولذلك كانت جل المتاجر والحوانيت ضمن هذا السور ، وبعبارة أوضح بين السورين فلا عجب والحالة هذه أن فضله التجار على سواه من متاجر المدينة حتى ضاق بهم على سعته ، وهذا ما حمل سدنة المعبد على بناء ملحق لهذا السوق يمتد على طول الجهة الغربية ونصف الجهة الشمالية الغربية ، ويبلغ مجموع حوانيت هذا السوق نحو ثلاثة أضعاف ماهو موجود اليوم في جميع سوق الحميدية . ويدلنا هذا على مكانة دمشق التجارية في ذاك العصر .

وكان السور الداخلي الصغير ، يحيط بالهيكل أو بيت الآلهة ، وحدوده هي جدران جامع بني أمية الحالية . طوله من الشرق إلى الغرب (١٥٦) متراً وعرضه من الشمال الى الجنوب (٩٧) متراً . ويشبه بناؤه بناء السور الخارجي ، وله برج مربع في كل من زواياه الأربع . حفظ منها في الجنوب برجان وهما بعض منارة عيسى والمنارة الغربية . وله من الداخل غرف على طول الجدارين الغربي والشرقي . ويرتكز على جدرانه من الداخل رواق معقود على عمد . وكانت أرضه مرصوفة بالفسيفساء كما يستدل من بقاياها التي اكتشفت حديثاً عند زاويته الشرقية الشمالية . ولهذا السور مدخل بثلاثة أبواب في منتصف كل من جهاته الأربع . الأوسط منها كبير ومن جانبيه بابان صغيران . وأهم أبوابه الباب الشرقي وهو المدخل الداخلي الرئيسي . ويحيط هذا السور بالهيكل أو بيت الآلهة وحرمه المقدس وقد دثر هذا الهيكل ولم يبق له أثر ، منذ حول المعبد الى كنيسة في عهد الامبراطور (تيوضوزس) في الربع الأخير من القرن الرابع ميلادي .

يعتقد أكثر الناس بما ذهب اليه مؤرخو الاسلام ويحسبون أن جدران الجامع الأموي هي نفس الهيكل الوثني ، وهذا زعم باطل ، تنفيه الشواهد ، وماتوصلت اليه الأبحاث الأثرية ، ولولاها لبقي هذا الزعم حقيقة نؤمن بها جميعنا .

وقد اهتدي بفضل الأبحاث الاثرية لتعيين مكان الهيكل المدروس . وأن نتمثل رسمه قبل هدمه على وجه التقريب بالمقارنة مع ماهو معروف من نوعه في مواضع متعددة من بلاد الشام حيث عثر على عشرات المعابد الوثنية السامية . وان كانت هذه المعابد متفاوتة الأهمية غير أنها متشابهة باصولها مختلفة بفروعها . والقاعدة الاساسية أن يكون لكل معبد حرم يحيط به ، وسور يحمي حرمه . وهذا مايجب أن ينطبق عليه حاله في هيكل دمشق ولبناء الهيكل في كل عصر تقاليد وقواعد أساسية يتقيدون بها ولا يتسامحون بالشذوذ عنها ، كما هو شأن المساجد والكنائس والبيع في جميع أدوار التاريخ .

إن هيكل تدمر الحالي . هو أقرب هذه الهياكل شبهاً بمعبد دمشق ، ويصلح أن نتخذه أساساً رغم مابينها من فوارق ، ونستنير به في بحثنا عن هيكل معبد دمشق ، وتصوير حالته . ويمكننا استناداً على ما نعرفه عن تدمر أن نعين مركز هيكل دمشق في وسط النصف الغربي من الحرم الداخلي . وهذا ماذهب اليه أكثر علماء الآثار . ولابد أن يكون قد بني كأمثاله من بيوت الآلهة المعروفة بهيئة بيت مستطيل ، يحفظ فيه مايعبد من الأوثان . وله باب فخم يفتح نحو الشرق ، قبالة المدخل الشرقي الرئيسي ويتفق هذا الوضع مع ماذكره لنا (لوسيانوس) المؤرخ عن معبد منبج الذي كان هو أيضاً مخصصاً للمعبودين (هدد) ورفيقته (عترغتيس) كما شاهده بنفسه في القرن الثاني الميلاد .

وقد عثر في السنة الماضية . أثناء نقض سور الجامع الأموي من ناحيته الشرقية الشمالية ، بغية ترميمه ، على بعض أحجار يرجح أنها من أنقاض بيت آلهة معبد دمشق المبحوث عنه ومعاصرة لبقية بنيان المعبد أي من القرن الثالث للميلاد . وتشهد بذلك عدة كتابات يونانية قديمة موجودة في أنحاء مختلفة من المعبد . وأما الزيادة في السور فقد بنيت على نفقة المعبد سنة ٣٤٠م كما تؤكد كتابة يونانية وجدت في السور ونقلت الى دار الآثار في دمشق

وقد أطلق عليها في هذه الكتابة اسم (جمًا) وهو حرف الجيم اليونانية تشبهاً برسمها ، وكلاهما زاوية قائمة .

إن القرنين الثاني والثالث للميلاد ، هما عصر البناء الذهبي في بلاد الشام شيد فيها أعظم الأبنية المعروفة ، كالتي نشاهدها في تدمر وبعلبك وبصرى وجرش وغيرها من المدن الاثرية الشامية التي اشتهر أمرها منذ القديم ، ونافست روما بابنيتها وصروحها ، وقد رجع الرومان الذين زاروا بلاد الشام وفي نفوسهم أجمل الذكريات عما شاهدوه من براعة السوري وابداعه في فن البناء . ولم تأنف خاصتهم من نقل هذا الفن الجديد الى بلادهم والتهافت على اقتباسه . وقد استعان الرومان في بناء صروحهم بمهندسين سوريين وكان (بولودور) الدمشقي رئيس مهندسي القيصر (ترجان) الذي اشتهر في سني حكمه بشغفه في البناء . وتجلى هذا التأثير واضحاً في حمامات القيصر (ديوقلثيانوس) وفي قصره المشيد في (سالونا) من مدن (دلماسيا) . ومن الخطأ أن نعتبر هندسة بناء معبد دمشق وتنظيمه من عمل الرومان بل هو في جملته عمل شامي محض بل دمشقي صرف . وكل من يمعن النظر في مخطط هذا المعبد وفروعه قبل اضافة الزيادة على سوره ، يؤمن بوحدة تنظيمه وتناسقه ، وارتباط أجزائه بعضها ببعض بصورة لا تتأتى إلا إذا كان من صنع فرد أو جماعات تعاونوا على تحقيقه في فترة قصيرة وزمن محدود حتى جاء محكم الوضع قويم الأركان . وبقي هذا المعبد على الحالة التي وصفناها ، إلى أن ظهرت المسيحية في بلاد الشام . فدرست الهيكل القديم وجعلت في حرمه كنيسة كتدرائية كبرى على اسم القديس يوحنا المعمدان . ومنحت الامتيازات التي تتمتع بها كبريات الكنائس التي كانت تجير من استجار بحماها مهما عظم جرمه وقوي سلطان خصمه ، كما نصت على ذلك كتابة يونانية عثر عليها من عشرات السنين في محلة القيمرية ولم يتصل بنا إلا نصها والأصل لم يزل في موضعه على عمق عدة أمتار . وقد تعددت آراء العلماء في تحديد المكان الذي احتله هذه الكنيسة من المعبد ،

منهم من جعلها داخل الهيكل أو بيت الآلهة . وهذا زعم باطل لايمكن الأخذ به . إذ لايمكن تحويله الى كنيسة والاستفادة منه لاغراض دينية مسيحية ، بسبب انحراف سمت الهيكل عما يجب أن يكون عليه سمت الكنيسة . ويرى بعضهم أنها أقيمت في النصف الجنوبي من الحرم أي في موضع مصلى الجامع الحالي . ومنهم من حصرها في الناحية الشرقية منه . وحصرها آخرون في الناحية الغربية ، لوفقوا بذلك بين اجتهادهم هنا وبين رواية ابن عساكر في أمر اقتسام الكنيسة بين المسلمين والنصارى بعد الفتح الاسلامي . وهنالك فريق لايسلم بما ذهب اليه هؤلاء ويعتبرون قولهم وهماً أوحاه اليهم روايات لم يتبين صحتها . وصفوة قولهم أن الكنيسة كانت في ناحية ما من هذا الحرم حيث بقيت الى أن فتح المسلمون دمشق واقتطعوا قسماً منها لعبادتهم على زعم ابن عساكر أو من نقل عنه دون سواهم . وقد أثارت هذه الرواية الجدل بين علماء المشرقيات . منهم من سلم بها على علاتها ، ومنهم من طعن بصحتها ، لأنها رواية متأخرة لا سند لها ، ولم يسبق أن ذكرها أحد من مؤرخي الكنيسة الشرقية وهم أولى الناس بذكرها . ولو كانت حادثة واقعية لما أغفلوا تدوينها ونقوها ، كما فعل أحد رحالة الفرنج اسمه (اركوف) الذي زار دمشق بعد مضي ثلاثين سنة من الفتح الاسلامي ، وقال انه وجد كنيسة القديس يوحنا لم تزل في أيدي المسيحيين دون منازع ولم يذكر حادث هذه القسمة المزعومة على حداثة عهدها منه ، ولذلك يعتبرون بقاء الكنيسة بجملتها لأصحابها أمراً لايحتاج لدلالة ، وأن أول يد مدت اليها هي في زمن خلافة الوليد الذي درسها ودرس معها جميع ماجدد في العهد المسيحي داخل الحرم دون أن يبقي أثراً لمعالمها ، كما يستدل على ذلك من كتابة نقلها الينا المسعودي كما رآها في حائط المسجد ونصها : « أمر ببناء هذا المسجد وهدم الكنيسة التي فيه عبد الله الوليد أمير المؤمنين ، في ذي الحجة سنة سبع وثمانين . » ولو كانت القسمة حقيقية لما أجاز الوليد أن ينسب لنفسه

بناء المسجد بل لذكر أنه وسعه فقط . واضافة الى هذا النص ولاعتبارات هندسية يمكننا أن نقول أن الوليد درس الكنيسة وخطط مسجداً مستقلاً مرتبط الأجزاء ، خلواً من أثر أي زيادة أو استعارة . وقد استوحى واضع تصميم هذا المسجد بالأبنية السوريه القديمة وطرازها المألوف اذ ذاك وصاغ منها طراز بناء جديد له طابعه الخاص وشخصيته المستقلة . وقد وفق الى حد بعيد في الجمع بين أسلوب البناء القديم وما تستلزمه شروط الحياة الاسلامية وتعاليمها الدينية حتى كاد يلتبس على المرء أصول هذا المزج . ويعتبره ابتكاراً لا مزج فيه ولا استعارة . وهكذا وضعت منذ ذاك التاريخ أسس الهندسة العربية التي نسج على منوالها في جميع العالم الاسلامي في الشرق والغرب . وأصبح الجامع الأموي في دمشق المثال الكامل الذي تمخضت عنه كل مانعرفه من روائع الفن الاسلامي .

وقد بقي الجامع الأموي الى يومنا هذا ، كما رسم في خلافة الوليد ، ولم يطرأ عليه خلال ثلاثة عشر قرناً غير تعديل طفيف في فروعه دون أن تمس أصوله رغم النكبات التي توالت عليه وذهبت ببعض محاسنه التي كانت من عجائب الدنيا . وهكذا سيبقى هذا المعبد الى ماشاء الله ، آية كل عصر ، وتحفة كل زمان ، تزهو به دمشق ويفاخر به أهلها حتى يصح به قول الجاحظ حينما كتب أنه : « لايجوز أن يكون أحد أشد اشتياقاً الى الجنة من أهل دمشق لما يرونه من حسن مسجدهم . » وقال أيضاً : « ومن عجائبه أنه لو عاش الانسان مئة سنة وكان يتأمله كل يوم لرأى فيه كل يوم مالم يره في سائر الأيام من المحاسن » .

ونرجو من العناية الالهية أن ترعاه بعنايتها ليبقى لدمشق من أسمى مفاخرها وللعالم أجمل عبرة وأحسن عظة والسلام عليكم .